# ابنة يفتاح (قض ١١: ٢٩-٤٠)

**الأخت باسمة الخوري**

**بيبليا أيلول ٢٠٠٣**

***مقدمة:***

في قراءتنا للأسفار التاريخية، نتعرّض لتجربة قراءة هذه النصوص على ضوء منطقنا وعلومنا، في حين أن الكتّاب الملهمون قدّموا لنا قراءة وجدانية للأحداث. فقد قرأ هؤلاء الكتّاب تاريخهم على ضوء موضوع ***العهد***، الذي تحوّل إلى محور الإيمان وركيزته. وتحوّلت الأحداث التاريخية بفعل هذا الأيمان، إلى أحداث رمزية، ترافق المؤمن في كل زمان ومكان، لتنير طريقه نحو تحقيق إرادة الرب المخلّص.

***موضوع العهد*** بسيط في ظاهره، قوامه حب الله لشعبه ومبادلة الشعب لهذا الحب. فالله يدعو شعبه ليقيم معه علاقة خاصة، وينتظر منه التجاوب مع هذه الدعوة. قدّم سفر الخروج حدث عهد الله مع إسرائيل، المحرَّر من العبودية، كولادة جديدة، خلقت هذا الشعب بكراً لله محبوباً. وبرهن الله عن أمانته لعهده مراراً وتكراراً رغم خيانة هذا الشعب المتكررة، واتّباعه آلهة أخرى نسب إليها خلاصه (خر ٣٢: ٧-٨). لم يحفظ الشعب وصايا الله المتكررة على لسان موسى ويشوع "احذر أن تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر..." (تث ٦: ١٢) خاصة بعد موت هذا الأخير.

ولنا في سفر القضاة قراءة لأمانة الله لعهده من جهة ولخيانة الشعب لهذا العهد من جهة ثانية. وعلى ضوء ذلك يمكننا قراءة نص إبنة يفتاح (قض١١: ٢٩-٤٠).

شكّل هذا النص مشكلة كبيرة للكثير من الشرّاح، لأنه يتحدث عن ذبيحة بشرية قدّمها يفتاح لله، وفاء لنذر قام به. فالعهد القديم واضح بهذا الخصوص، وهو يرفض هذه الذبائح رفضاً قاطعاً. فقد تدخّل الله شخصياً في حادثة تقديم إبراهيم لابنه اسحق، لمنعه من ذبحه (تك٢٢)، وقد نهت الشريعة عن ذبائح كهذه لأنها إتّباع للديانات الوثنية "لا تصنع هكذا نحو الرب إلهك، فإنها قد صنعت لآلهتها كل قبيحة يكرهها الرب، حتى أحرقت بنيها وبناتها بالنار لآلهتها" (تث١٢: ٣١). فكيف نجد عكس ذلك في نص ابنة يفتاح الجلعادي؟ وما المغزى منه، والدرس اللاهوتي المقصود من ورائه؟

## ***I - يفتاح مخلص شعب إسرائيل أم رئيسه؟***

### أ - الإطار التاريخي:

عُرف يفتاح على أنه سيّد في إسرائيل، الذي استقرّ شرق الأردن في القرن الثالث عشر ق.م. أيام ما سمّي مرحلة القضاة. تمتد هذه المرحلة على مدى ثلاثة قرون بين دخول يشوع بن نون وملك

داود. كان الإسرائيليون خلال هذه الفترة على خلاف دائم مع الشعوب الكنعانية التي تحيط بهم. فخضعوا للعمّونيين شرقاً، وللموآبيين وللمديانيين في الشمال الشرقي، وللكنعانيين في الشمال، وللفلسطينيين في الجنوب، وعندما اشتدت عليهم الضغوطات وطلب الشعب العون من الله، أقام الله فيهم قضاة، أعطاهم القوة ليرأسوا الشعب ويخلّصوه من مضطهديه.

كان ظلم العمونيين قد دام ثمانية عشر عاماً أيام يفتاح، مما أدى إلى بؤس كبير في أوساط الشعب، الذي طلب عون الله، والتجأ إلى يفتاح. جمع هذا الأخير عسكراً، وحارب وانتصر، لكن النصر انتهى إلى كارثة عظيمة: موت إبنة يفتاح، وحيدته، بتولاً تتميماً لنذر نذره أبوها.

## ب – الإطار الكتابي اللاهوتي

قبل البدء في سرد الأحداث، يقدّم الكاتب شخصية يفتاح، مختصِراً إيّاها بصفتين إثنتين: "كان *جباراً*" وهو "*ابن زانية*" (قض ١١: ١).

لأنه كان "*ابن امرأة زانية*"، طرده إخوته ورفضوا كل حصة له في الميراث. وهو ما وافق عليه شيوخ القوم، كما يعلن يفتاح نفسه في قض ١١: ٧. ولأنه كان "*جباراً*" عاد إليه إخوته وشيوخ القوم طلباً للخلاص.

ولكن، قبل وصفه لشخصية يفتاح، يعطينا الكاتب صورة عن الوضع الديني القائم: "صرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا " قد خطئنا إليك وتركنا إلهنا وعبدنا البعل" (١٠: ١٠) ... فقال الرب...تركتموني أنتم وعبدتم آلهة أخرى فلذلك لا أعود أخلّصكم. إذهبوا فاستعينوا بالآلهة التي اخترتموها، فلتخلّصكم في أوان شدّتكم". فقال بنو إسرائيل للرب:" قد خطئنا، فاصنع بنا كل ما يحسن في عينيك، ولكن أنقذنا في هذا اليوم" (قض ١٠: ١٣–١٥). إن لإطار اللاهوتي لقصة يفتاح ونذره هو إذاً عبادة الآلهة الغريبة، والاستغاثة بها أوان الشدّة.

لا يقول النص أبداً أن الله هو من أرسل يفتاح، كما هو الحال مع عتنيئيل (٣: ٩)، ومع أهود (٢: ٥)، ومع جدعون (٥: ١٤)، وكما سيكون الحال مع شمشون (١٣: ٣–٥)، بل يُظهر بوضوح مبادرة أهل جلعاد الفردية (١١: ٤–١١)، وتفتيشهم عن مخلّص دون الاستسلام للعناية الإلهية التي طلبوها. لقد انطبق عليهم قول النبي هوشع: "ينصّبون ملكاً ولا يستشيرونني، يقيمون رؤساء وأنا لا أعلم" (هو ٨: ٤).

**ج- يفتاح قائد الشعب ورئيسه.**

تظهر مفاوضات الشعب مع يفتاح وكأنها تطبيق لما قاله الرب. قال لهم: "إذهبوا فاستعينوا بالآلهة التي اخترتموها، فلتخلّصكم في أوان شدّتكم"، "فانطلق شيوخ جلعاد ليأتوا بيفتاح" وهو ابن الزانية المطرود من أرض ميراث الأب. نراهم يفاوضونه ليحارب بني عمّون، في حين يفاوض هو للحصول على أكثر مما يعرضون عليه. قالوا له تكون "قائداً"، فطلب: "أكون رئيساً عليكم". وافقوا أن يكون "القائد والرئيس"، فأَشهَد عليهم الرب. ولكن يحق للقارئ أن يتساءل حول نقطتين:

- لماذا لا يرد أبداً موضوع خلاص الشعب وتحريره من الضيق العظيم في كل المفاوضات (١٠: ٩)، بل يدور الحوار كله حول عودة أهل جلعاد إلى يفتاح *"ليحارب* الأعداء *ويرأس* الشعب" (١١: ٨)؟
- لماذا لا نجد للرب أي دور سوى دور الشاهد (١١: ١١)؟

تمّ الأمر، وعاد أهل جلعاد في ضيقهم إلى "الجبار ابن الزانية" ليغلب العمّونيين. أقاموه عليهم رئيساً وقائداً، فعمل ما يعرف القيام به. فاوض يفتاح ملك عمّون، فظهر سياسياً بارعاً ومحنّكاً؛ وعندما فشلت مفاوضاته السياسية، حارب فإذا به محارب باسل وشجاع.

في حواره مع ملك عمّون نكتشف يفتاح الذي يعرف تماماً تاريخ "إسرائيل" العسكري وخروجه من أرض مصر واستقراره في أرضه. لكننا نكتشف أيضاً أنه يساوي بين "كموش" الإله الذي يورث شعبه أرضاً يرثها، وبين "الله" الذي يورث شعبه أرضاً يجب أن يرثوها (١١: ٢٤). إن يفتاح السياسي العسكري وعالم التاريخ، لم يعرف الرب معرفة حقّة بعد. فإن كان قد جعل من الله شاهداً، فذلك على أقوال الآخرين المؤمنين به؛ وإن استشهد بقدرة الله، فذلك كما استشهد بقدرة الآلهة الأخرى. إيمان يفتاح هو إيمان شعب "زانٍ" غير أمين لعهد الإله الواحد.

ومع ذلك "حلّ روح الرب على يفتاح" (١١: ٢٩)، لأن الرب "رقّ قلبه لبؤسهم" (١٠: ١٦). لكن هل عمل يفتاح بحسب روح الرب؟[1] يبدو أن النص يُظهر عكس ذلك.

أعطى الرب روحه ليفتاح، فلم يثق هذا الأخير به ولم يؤمن بقدرته على ا لخلاص. إن يفتاح "جبار" لا يؤمن إلاّ بجبروته وهو "ابن زانية" لا يثق سوى بما يعرفه عن تجاوب الآلهة مع البشر، وما نذره إلاّ برهان على ذلك.

[1] يسوع وحده عرف كيف يتجاوب مع روح الله، فخرج من كل تجارب إبليس بفضل ثقته بالله وبطاعته الكاملة له (مت ٤: ١-١١).

### د- نذر يفتاح (١١: ٣٠-٣١)

في نذر يفتاح صورة عن إيمان هذا الجبار: إيمان *بعهد* مبنيّ على مصلحة شخصيّة، وليس إيمان *بإله العهد* الأمين. في نذره يكمن كل جوهر الإيمان الفارغ القائم على شراكة خارجية، تحفظ لكل طرف حقّه ومكانته. إيمان كهذا هو أبعد ما يكون عن الإيمان الحق القائم على الثقة الكاملة بالله، بعيداً عن أي شروط يضعها الإنسان على الله. عامَلَ يفتاح الله كما عامل أهل جلعاد. فكما فاوضهم على تولّيه الرئاسة إن غلب العمونيين، فاوض الله على إعطائه جائزة (محرقة بشرية) إن تمّ له ذلك. استطاع يفتاح أن يربح من الشعب الرئاسة، وظنّ أنه بالوسيلة عينها يربح قدرة الله إلى جانبه.

كان الله قد أفاض روحه على يفتاح مجّاناً، ودون أن يطلب منه شيئاً بالمقابل. أعطى الله للجبار روح القدرة ليحقق خلاص شعبه الواقع في الضيق. لكن يفتاح خاف من إمكانية خسارته لفرصة السلطة والرئاسة، فأراد رشوة الله: "إن سلّمت بني عمّون إلى يدي، فكل خارج من باب بيتي للقائي، حين رجوعي سالماً من عند بني عمّون، أكرّسه وأقدّمه محرقة لله" (١١: ٣٠-٣١)[٢]. صحيح أن يفتاح، يقرّ بنذره هذا، بقدرة الله على إعطائه النصر، لكنه في الوقت عينه، يضع شروطاً: "إن عدت سالماً". ظنّ يفتاح بأن الله ينتظر ثمناً لهذا الخلاص فاتّبع سياسية "أعطني لأعطيك"، بعيداً عن مجّانية الخلاص الذي قام به الله لشعبه مراراً وتكراراً، "ليس لأنه صالح" (تث ٩: ٨)، بل لأنه "أبوه الذي خلقه، الذي أبدعه وكوّنه" (تث ٣٢: ٦).

هكذا يظهر يفتاح بعيداً جداً عن أمانة القضاة الحقيقيين لعهد الرب، ولكن يمكننا أن نتساءل كيف يدخل موضوع ابنة يفتاح في هذا الإطار وما هو المقصود منه؟

## II - *ابنة يفتاح أم عذراء إسرائيل؟*

أعطى الكتاب المقدس صوراً عديدة للعهد بن الله وشعبه. من أبرز هذه الصور تظهر تلك التي تعطي الزواج كرمز للعلاقة الحميمة التي يريدها الله مع شعبه. يصف الكتاب المقدس الله بالزوج المحِبّ الأمين، ويقدِّم عذراء إسرائيل بصورة الزوجة، التي غالباً ما كانت خائنة زانية، تركت زوج صباها وتبعت

---

[٢] رأى بعض النقّاد في القصة أسطورة بطولية لطقس أمّوري مشابه لأسطورة أدونيس وعشتروت بحيث تحوّلت الدموع المذروفة على أدونيس إلى بكاء البتولية. لكن موضوع النوح يختلف في حالة ابنة يفتاح لأنه يتمحور حول مصير بتول عليها أن تموت قبل أن تنجب. هذا يمكّننا من الظن بأن طقس تمّوز أو أدونيس كان معروفاً في إسرائيل القديم. ونجد العديد من الأمثلة عن نوح سنوي لموت أو اختفاء أحد الآلهة، غالباً ما ترافقه محرقة بشرية كمثل ذبيحة أفيجينيا، التي قدّمها أبوها أجاممنون للحصول على الهواء؛ أو كتقدمة ابن ايدومينيا ملك كريت للخلاص من الغرق. فالشبه كبير بين ايدومينيا ويفتاح، لأن الأمر يتعلّق في الحالتين بتقديم أول من يقابل الناذر، فيصادف أنه ابنه أو ابنته. من الأرجح أن الحدث تاريخي هزّ النفوس، ثم تداخلت فيه عناصر طقسية قديمة. لنا في بعض الإشارات في النص تأكيد على ذلك، كمثل "المضي إلى الجبال" والنوح "أربعة أيام" في حين تمتد أيام النوح في إسرائيل ثلاثة أو سبعة أيام (حز ٨: ١٤). يمكننا تشبيه حزن بنات إسرائيل على ابنة يفتاح بالحزن على الملك يوشيا في ٢ أخ ٣٥: ٢٥.

عشّاقاً كثيرين (هو ١-٢؛ أش ٥٤: ٥-٨؛ إر ٣). أُغرم الله بعذراء إسرائيل وهو غير مستعد للتخلّي عنها، شرط أن تعود فيغفر لها ويعيدها، رغم أن موسى لم يسمح بإعادة الزوجة الزانية (إر ٣: ١-٢). لكن عذراء إسرائيل لم تعرف الأمانة لعهد زوجها-إلهها وأبيها "لأن زوجك هو صانعك" (أش ٥٤: ٥-٨)، "صرخت إليّ: يا أبي، أنت رفيق صباي" (إر ٣: ٤).

### أ- العذراء هي ابنة يفتاح

يلفت النظر عدم وجود اسم لهذه العذراء الوحيدة. وكأن شخصيّتها كلها تتلخّص بشخص أبيها. إنها "*ابنة يفتاح الجلعادي*" الخارجة، ليس إلى الرب بل إلى أبيها، ترقص بالدفوف لمن ترى فيه المخلّص، فإذا به المضحّي بها على مذبح طموحاته وانتصاراته. خرجت ابنة يفتاح وهي تظنّ أنها تستقبل مخلّصها، فإذا بها تحصل على الموت بتولاً دون ذريّة. لقد تحوّل انتصار يفتاح إلى انتصار آنيّ أدّى به إلى الموت: فالبتول وحيدته، وستموت دون أن تعرف رجلاً[٣].

يبدو أن الكاتب قد رأى في هذا الحدث صورة لحالة الشعب أيام القضاة عامة، وأيام يفتاح خاصة.

### ب- العذراء هي بتول إسرائيل

يشبّه الأنبياء مصير شعب إسرائيل الذي خان ربّه واتّبع لآلهة أخرى، أو اتّكل على قوّته الشخصية، بالعذراء التي سقطت دون قيام (عا ٥: ١-٢). إنه شعب لا أمل له بحياة تدوم لأنه لن

---

[٣] لم تكن للمرأة أهمية كبرى في الشرق القديم، فقيمتها الوحيدة تكمن في الإنجاب حتى أنها كانت تسمّى "رحم" في بعض الأحيان: "رحماً، رحمين لكل محارب" (قض ٥: ٣٠)، أي ان الأمومة وليس الأنوثة هي ما كانت تعطي المرأة احترامها عند العبرانيين. وكما العقم، كانت البتولية نقصاً وإعاقة تسبب العار. وحده الزواج الخصب كان يشكّل برهاناً على البركات الإلهية (مز ١٢٧: ٣-٥). لاحظ L. Köhler ان المعجم العبري لا يحتوي كلمة "عازب" وكأنه من غير المعقول أن يبقى الرجل دون زواج Der Hebraische Mensch, Tübingen, 1953, p. 76 . فرابي اليعازر يقول "رجل غير متزوج ليس رجلاً بحق" Yebamot, 63؛ أما رابي اليعزر فيقول "من يهمل الانجاب كمن يهدر دماً" ويضيف رابي يعقوب "وكأنه ينتقص من صورة الله لأنه مكتوب: على صورة الله خلقه ويتبع ذلك مباشرة أثمروا واكثروا " (تك ١: ٢٧-٢٨) Yebamot, 63 b. وفي تفسيره لقول راحيل في تك ٣٠: ١ "أعطني أولاداً أو اجعلني أموت" يشرح تكوين رابا: هناك أربعة أجناس من البشر كأنهم أموات: البرص، والعميان، ومن ليس لهم أولاد، والمفلسون (٧١: ٦). في وقت متأخر جداً ظهر اهتمام بأهمية البتولية عند بعض التيارات الأسينية يردّها يوسيفوس ( De Bello Judaico, 11, 8, 2) وفيلون الاسكندري كما يؤكّد أوسابيوس (Praep. Ev., VIII, II) إلى الهرب من النساء. أما Pline (Hist. Nat., V, 17) فيصف ألأسينيين كفلاسفة "تعبوا من الحياة" فتخلّوا عن ملذات الحب. ولا تعطينا نصوص قمران توضيحاً حول الموضوع (Geurre VII, 3-5). يبقى النبي إرميا المثال الوحيد المعروف عن بتولية اختيارية واعية في العهد القديم. لكنه يحتفظ بطابع سلبي بحيث لا يرى لعفته الا الطابع التراجيدي

ينجب ولن يرى ذرّية "داس السيّد المعصرة على العذراء بنت يهوذا" (مرا ١: ١٥)، فما عليه سوى النوح "كعذراء متحزّمة بالمسح على زوج صباها" (يوئيل ١: ٨)[٤].

إن ابنة يفتاح ليست سوى شعب إسرائيل الذي جعل من يفتاح "*الجبار ابن الزانية*" أباه، ووضع كل رجاءه في الخلاص الذي سيحققه له. حقّق يفتاح الخلاص بقوة ذراعه وبمنطقه الديني المغلوط. خلّص الشعب من العمّونيين، لكن هذا الخلاص ليس سوى نصر ظاهر لا حياة ترجى من ورائه. لقد تسبّب نذر يفتاح ونصره بشقائه وبمحو ذرّيته (قض ١١: ٣٥)،، لأنه بهذا النصر عينه قدّم ذرّيته محرقة، تتميماً لوعد لا يمتّ للإيمان الحق بصلة. نسيت عذراء إسرائيل أبيها" فسقطت دون قيام" (عا ٥: ١-٢).

## ج- بكاء البتولية في الجبال

بكت العذراء بتوليتها مدة شهرين في الجبال، لكنها عادت من جديد إلى من يريد إحراقها، ولم ترجع إلى الرب الإله الحق. هذا هو تاريخ شعب إسرائيل الذي أنكر ربّه، وفتّش عبر تاريخه عن مخلّصين جعلوا منه ذبيحة على مذابح مشاريع لم يردها الله لهم. هذا ما قاله أشعيا النبي:"ويل للبنين العاصين يقول الرب، الذين يقيمون مشروعاً ليس مني، ويقطعون عهداً ليس من روحي ليزيدوا خطيئة على خطيئة". وما بكاء بني إسرائيل أربعة أيام في السنة سوى بكاء ما عبّر عنه ارميا النبي "صوت سُمع في الروابي، بكاء تضرّع من بني إسرائيل لأنهم حادوا عن طريقهم ونسوا الرب إلههم... لكن عار عبادتنا لآلهة غريبة أكل تعب آبائنا منذ فجر أيامنا: غنمهم وبقرهم، بنيهم وبناتهم..." (إر ٣: ٢١-٢٤).

تمّم يفتاح نذره بابنته البتول[٥]، لكن الله قادر على قيامها "أحببتك يا عذراء إسرائيل حباً أبدياً، فأبقيت على رحمتي لك. أبنيك بعد فتُبنين يا عذراء إسرائيل وتحملين دفوفك بعد وتبرزين في حلبة الرقص" (ار ٣١: ٣). الرب هو رب العهد، وهو الأمين الذي يضمن حياة شعبه رغم جهله.

لن تنتهي سلسلة القادة الجهلة والخاطئين هنا، كما لن تكون خطيئة الشعب هي الأخيرة، لكن رحمة الرب أكبر وخلاصه أكيد. فهو من قال "ارجعوا أيها البنون الشاردون، فأنا سيّدكم... فأعطيكم حكاماً على مشتهى قلبي، فيحكمونكم بمعرفة وفهم" (إر ٣: ١٤).

---

[٤] أن تموت الفتاة دون أن تحقق دعوتها إلى الأمومة، كان يُعتبر العار الأكبر واللعنة الأعظم التي يمكن أن تحلّ بفتاة في إسرائيل. لن يعرف الكتاب المقدس أهمية البتولية إلا في العهد الجديد، الذي فهم خصب البتولية السامي في خط الخليقة المتجدّدة (غلا ٤: ٢٧؛ راجع أش ٥٤: ١).

[٥] كانت الشريعة تفرض إلزامية تتميم النذر (راجع عد ٣٠: ٣؛ ٣٢: ٢٤؛ مز ٦٦: ١٣؛ ار ٤٤: ١٧) لذلك أوصى الحكماء بالحذر في هذا الأمر (مث ٢٠: ٢٥).